لهجات العرب قبل الإسلام

العرب والعربية

الدكتور: مختاري خالد

جامعة وهران1ـ الجزائر

اللغة العربية التي نتكلمها ونكتب بها، هي إحدى اللغات الأصيلة في تاريخ الوجود البشري، وحسبنا أن نعلم أنها اخترقت العصور القديمة، وهي ما سمي جاهلية أو جاهليات، فاستقامت إلى أدوات تعبيرها وانضبطت في أقيسة تباينت بالشكل إلا أنها استطاعت حتى فجر الاسلام أن تندرج في بضعة ألسن، وجدت لها فيما بعد تعبيرا موحدا بلسان قريش، وهو أقوم الألسن وأقدرها على الاستيعاب فكانت اللغة التي دُوِّن بها القرآن الكريم، وطبعها بعبقرية الإعجاز، فالعربية هي لغة الاشتقاق والقياس.

الكلمات المفتاحية: لغة القرآن، اللهجات العربية، تاريخ اللغات، تطور اللغات، العربية.

Abstract

The Arabic language, which we speak and write, is one of the authentic languages in the history of human existence, and we have to know that expression it penetrated antiquity, which is called Djahilia or Djahiliate. It straightened to be tools and adjusted in analogies, varying in forms. However, it was able until the dawn of Islam to fall into a few tongues. We found later a unified expression of Quorish tongue, which is the best among the tongues and the most apt to intake, and it was the language within which the holy Qur'an was written, and marked it with genius of miracles, Arabic is the language of derivation and measurement.

Keywords: authentic languages, antiquity, derivation, miracles

لقد اغتنت اللغة العربية في سياق التاريخ بمفردات ومرادفات جعلتها من الإحاطة والشمول قادرة على استيعاب معطيات كل عصر، وتقديمها بلسانها المبين، ومن النظريات التي اهتمت بدراسة تاريخ تطور اللغات، نظرية ترى أن اللغة كائن حي، كائن بيولوجي وأن اللغة إنسان، وهي نظرية "تين".

فللعرب لهجات دعاها علماء اللغة الاسلاميون "لغات تجاوزا" وتسمى هذه اللغات في اصطلاح علماء اللغة المحدثين" لهجات" واللهجة فرع من فروع اللغة الواحدة لها مجموعة من الصفات اللغوية تتميز بها، ومن أهمها الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها

وتدرس في علم مخارج الحروف أي "phonétique" وعنى المستشرقون بالنصوص الجاهلية التي وصلت إليهم فقرؤوها ودرسوها ونشروها، ثم قسموها إلى مجموعتين:

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ا- لهجات عربية جنوبية

ب-لهجات عربية شمالية

أما مجموعة اللهجات العربية الجنوبية: فتشمل من اللهجات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية ولها أبجدية خاصة وقلم يعرف "بالقلم الحميري" عند المستشرقين وبالمسند عند المسلمين من كلمة مسند ومعناه الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية .

وأما اللهجات العربية الشمالية فأشهرها اللغة العربية الفصيحة، (لغة القرآن) واللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية وتمتاز اللغة العربية الفصيحة عن هذه اللهجات بقلمها المشتق من القلم النبطي المتأخر ذلك أن القلم النبطي المتقدم يختلف عن الفدم النبطي المتأخر وهو سليل القلم الآرامي القديم إما قلم واللحيانية والثمودية والصفوية فقلم قريب من المسند " القلم الحميري" وهو مشتق منه في رأي المستشرقين

ولا يعجب بعض الباحثين العرب منهم الدكتور جواد علي بهذا التقسيم فيقسمون اللهجات العربية القديمة الى ثلاث مجموعات على حسب اداة التعريف المستعملة في كل لهجة.

مجموعة تستعمل " أل" اداة للتعريف ومجموعة تستعمل النون اداة للتعريف ومجموعة ثالثة تستعمل الهاء لتعريف النكرة.

اما مجموعة "أل" فتشمل النصوص النبطية وبضعة نصوص كتبت بلهجة قريبة من عربية القرآن الكريم، هي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص " النمّارة" وهو مكان يقع على بعد120 كيلومتر جنوب غربي دمشق، ويرجع تاريخه لسنة 328للميلاد، وتم اكتشافه سنة 1910م، وهو شاهد قبر ملك عربي شمالي اسمه امرئ القيس يظن العلماء انه اول ملوك الحيرة في العراق.

وقد اتفق الباحثون على ان هذا النص (النقش) الطويل نسبيا والمكتوب بخط آرامي، إنما هو مكتوب بلغة تشبه العربية الفصحى الكلاسيكية التي نعرفها ويليه نص "زبد" ويعود تاريخه لسنة 512 للميلاد، ونص "حرّان" ويرجع تاريخه لسنة 568 للميلاد (أل. أداة للتعريف في أول الاسم)

أما مجموعة حرف الهاء فتشمل الصفوية والثمودية (هـ. ها أداة للتعريف في آخر الاسم)

ومجموعة حرف النون فتشمل اللهجات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية والحميرية (ن. أن أداة للتعريف في أخر الاسم)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العرب والعربية:

يقول الدكتور جواد علي: " إن لفظة (ع رب) هي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغات السامية، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا وهي النصوص الآشورية، وقد عنى بها البدو عامة مهما كان سيدهم أو رئيسهم. وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم.."[1].

ففيما يخص أول من تكلم اللغة العربية، يرى فريق من المسلمين أن أول من تكلم العربية إسماعيل بن إبراهيم، ورأى فريق آخر أن أول من تكلمها وأبان عن أغراض نفسه وأعرب هو"يعرب بن قحطان"[2].

وعلى هذا يكون يعرب أول رجل تكلم العربية، وعنه أخذها نسله ومن ذريته تعلم إسماعيل بن إبراهيم، ومنهم من زعم أن العربية لغة "العرب العاربة" ومنها انتقلت الى القحطانيين فالعدنانيين.

ورأت جماعة أخرى أن اللسان العربي هو لسان آدم في الجنة، فلما عصى ربه ونزل الأرض نسي لسانه فتكلم السريانية.

وقال فريق اخر ان لسان جميع من كان في سفينة نوح عليه السلام هو السريانية إلا رجل واحد هو "جُرهم" فكان لسانه لسان العرب الاول فلما خرجوا من السفينة تزوج آرم بن سام بعض بناته منهم صار اللسان العربي في ولده، عوض أبي عاد وعبيد وجاثر أبي ثمود وجديس[3].

لغة من كانت هذه العربية الفصحى قبيل الإسلام ؟

لقد ذهبت جماعة من العلماء إلى أن قريشا هم أفصح العرب وبلسانها نزل القرآن، لأنها كانت تختار من أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتهم لغتها فنزل القرآن بها، وهذا رأي منسوب إلى قتادة المتوفى 117هـ[4]، وللفراء المتوفى سنة 207هـ رأي يشبهه جاء فيه: " كانت العرب تحضر المواسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فخلت لغتها من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ[5].

وقال أحمد بن فارس المتوفى سنة 395 هـ: "أجمع علماؤنا العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغتهم وأيامهم ومحالهم، أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأوصافهم لغة ... فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فصاروا بذلك افصح العرب"[6].

وهناك تعليل متفق عليه في سبب فصاحة قريش: "كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عمّا في النفس. وقال ابن خلدون: كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم، حتى عن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية"[7].

وتوسع المحدثون في أثر ما كان لعكاظ في تثقيف لغة قريش وفي تأثر، من كان يحضر فيه من الشعراء والأدباء بلغتها، ومن هؤلاء سليمان البستاني ووجدت نظرية ان لغة القرآن الكريم هي لغة قريش، لها أنصارا بين المعاصرين مثل د طه حسين وعدد من المستشرقين .

إلا أن هناك رواية أخرى تصف لغة قريش "بالغمغمة" وهي من المآخذ التي أخذها العلماء على بعض اللهجات[8]، كما وجدت روايات تصف لهجات أخرى غير لهجة قريش بالفصاحة. حيث قال أبو عمرو بن العلاء: " أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم"[9].

وحدد كثير من الدارسين العرب القدامى هوازن في القبائل التالية: قيس وتميم وأسد والعجز، وعليا هوزان في خمس قبائل منها: سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، قبائل وصفت بالفصاحة وان لهجتها هي مادة اللغة[10].

وقال أبو عبيد وأحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر لقوله صلى الله عليه وسلم،: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، واني نشأت في بني سعد بن بكر"[11].

وهذا ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم، فصاحة سعد بني بكر عند رده على سؤال علي رضي الله عنه قائلا: حين سأل علي يا رسول الله نحن بنو عم واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم بعضه، فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم: " أدبني ربي وأحسن تأديبي وربيت في بني سعد"[12].

ولهذه الأسباب وفي نظر كثير من الدراسين العرب والقدامى عدت هوازن وتميم وأسد من أفصح القبائل في الاسلام ولذلك رحل اليها علماء اللغة العربية للأخذ منها تفسيرا لمستعصي الألفاظ في القرآن الكريم، مثل الخليل بن أحمد والكسائي والأزهري وغيرهم.

وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف: " فكانت قريش أجود انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان، عن النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما بالنفس، الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هم قيس وتميم وأسد.. وعليهم اتكل في الغريب والأعراب والتصريف.. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل"[13].

ويبقى الاختلاف سائدا بين آراء الدارسين العرب القدامى لمصدرية اللغة العربية في علاقتها باللهجات العربية القديمة، الأمر الذي يفرض أسئلة تبقى فارضة نفسها على مؤيدي نظرية أن لغة قريش هي لغة القرآن، فإذا كانت لهجة قريش قد ارتقت إلى رتبة لغة لأنها هي لغة القرآن لما لجا المفسرون إلى الاستشهاد بشعر غير قرشي لتفسير كلمة من كلام الله؟ ولما قلت أشعار قريش حتى كثر فيها الانتحال للشعر؟وللإجابة عن هذه الأسئلة يأتي الطبري، ويجمل هذا الصراع في قوله: "أنّ القرآن كله عربي، وأنه نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها"[14].

فأما الخط العربي الذي اعتمدته اللغة العربية، تقول بعض المصادر التي لا تعزو اختراع الخط العربي لآدم أو لإسماعيل أنه وافد من الخارج، إما من الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية عن طريق قبيلة جرهم أو من العراق، ويدعم أهل الحيرة هذه النظرية ذلك أنهم يقولون أن: "هناك صلة بين الخط العربي والخط السرياني"[15].

إلا أنّ معظم الباحثين يرفضون نظرية الأصل السرياني للخط العربي ويقولون أن الخط العربي تطور عن أصل نبط وهو الخط الذي استعمله النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في كتابة رسائله إلى الملوك والحكام.

ولم تختلف الدراسات القديمة والحديثة على أن اللهجات العربية القديمة اعتمدت الخط المسند والثمودي ثم انتهت إلى الخط النبطي، خط كان الحجازيون أول من حرر العربية منه فبدأ يتغير بشكل متقارب حتى عهد الأمويين حين بدأ مع أبو الأسود الدؤلي بتنقيط الحروف، ثم أمر عبد الملك بن مروان عاصما الليثي ويحي بن يعمر بتشكيل الحروف، فتبدؤوا بوضع نقطة فوق الحرف للدلالة على فتحه، ونقطة تحته للدلالة على كسره، ونقطة عن شماله للدلالة على ضمه. ثم تطور حال الخط العربي إلى وضع ألف صغيرة مائلة فوق الحرف للفتح، وباء صغيرة للكسر، وواو صغيرة للضم، إلى أن وصل الخط العربي على الشكل الحالي الذي نكتبه ونقرأه، فتح وكسر وضم.

ونخلص من دراستنا لتطور اللهجات العربية قبل الإسلام وتبلورها في اللغة العربية الفصحى" لغة القرآن الكريم"، أن اللغة العربية هي نتاج لمجمل سير تاريخ المجتمع العربي، وتاريخ البنية التحتية فيه، وهي نتاج مجموعة كاملة من العصور التي تشكلت خلالها وفي تطورها، وهي لغة ارتبطت مباشرة بالنشاط الانتاجي للإنسان فهي ليست نتاج طبقة اجتماعية معينة، بل هي من صنع المجتمع العربي كله وبجميع أجياله.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مراجع البحث وإحالاته:

1- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملاين بيروت 225/1.

2- د. جعفر دك الباب، السامية والساميون- العرب والعربية، مجلة الموقف الادبي، العدد 117، يناير، 1981، ص: 45.

3- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة ، 1/30-31.

4- عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ، المجلد الأول ، ط 2 (دار الكتاب البناني ، بيروت ، 1979) ، ص:1072

5- جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، 1/ 221.

6- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، 28/1.

7- ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع السابق، ص: 409.

8- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص: 31.

9- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، 128/1.

10- ينظر: مصطفى صادق الرافعي، مرجع سابق، 127/1.

11- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، 1964، 153/1.

12- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناجي،المكتبة العلمية - بيروت، 1979م، ص: 1/.112

13- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، 2006، ص: 22.

14- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف - عصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة، 23/1.

15- ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص: 87.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com